

التفسير المختصر - سورة القصص(٢٨) - الدرس (١٨-٦) : تفسير الآيات ٢٤-٢٢ ، ولما
توجه تلقاء مدین قال عسى ربی أن يهديني سواء السبيل.....
لفضیلۃ الدکتور محمد راتب النابلسی بتاريخ: ١٩٩٥-٠٩-٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سیدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا
إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علما، وأرنا
الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا من يسْتَمِعُونَ القول
فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ وَأَدْخِلُنَا بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ.

أيها الإخوة الكرام، لازلنا في قصة سیدنا موسى عليه وعلى نبینا أفضل الصلاة والسلام،
ووصلنا في سورة القصص من هذه القصة إلى قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدِينَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدِينَ
وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذَوَّدَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا نَا نَسْقِي
حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّ إِلَى الظَّلِّ فَقَالَ رَبِّي إِنِّي لِمَا
أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٤)﴾

[سورة القصص]

أول استنباط من هذه الفقرة أن الغنى هو العمل الصالح وأن الفقر الحقيقي هو فقر العمل الصالح،
لذا قد تملك مئات الملايين وأنت أفقير الفقراء إن لم يكن لك عمل صالح ينفعك بعد الموت، وقد لا
تملك ثروة لكن لك أعمال كالجبال فأنت أغنى الأغنياء، هذا ما قاله الإمام علي كرم الله وجهه ؛
قال: الغنى والفقير بعد العرض على الله، هذا النبي الكريم يقرر بإذن الله عز وجل أن الغنى غنى
الأعمال الصالحة وأن الفقر الحقيقي فقر الأعمال الصالحة،
عن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(اتبسمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهِيكَ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلُ
فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدَقَةٌ وَبَصْرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ الْبَصَرِ لَكَ صَدَقَةٌ وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرُ وَالشَّوْكُهُ
وَالْعَظْمُ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ وَإِفْراغُكَ مِنْ دُلُوكَ فِي دُلُوكِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ)

[رواہ الترمذی]

كلمة الحق صدقة، والنصح صدقة، وأبواب الخير مفتوحة على مصارعها، تربية الأولاد من
أعظم الأعمال، والرفق بالزوجة من أعظم الأعمال ورعاية الأبوين من أعظم الأعمال، ورعاية
الأولاد من أعظم الأعمال والنصح للمسلمين من أعظم الأعمال، وإتقان العمل من أعظم الأعمال
فيإمكانك أن تكون أغنى الأغنياء، وبمقاييس الأرض الأغنياء هم الذين يملكون الملايين المليونية،
ولكن بمقاييس السماء الأغنياء هم الذين سخر الله لهم ما يعينهم على الأعمال الصالحة، قدر على

يدهم الخير ؛ الخير بِيَدِي والشرّ بِيَدِي فَطوبى لِمَنْ قَدِرْتُ عَلَى يَدِهِ الْخَيْر، وَالوَيْلُ لِمَنْ قَدِرْتُ عَلَى يَدِهِ الشَّرّ، وَإِذَا أَرْدَتُ أَنْ تَعْرِفَ مَقَامَكَ فَانْظُرْ فِيمَا اسْتَعْمَلَكَ، كَيْفَ يَسْتَعْمِلُكَ اللَّهُ ؟ لِخِدْمَةِ الْخَلْقِ أَمْ لِإِيْذَائِهِمْ، لِإِعْطَائِهِمْ أَمْ لِلأَخْذِ مِنْهُمْ ؟ لِتَنْطَمِنُهُمْ أَمْ لِتُخْوِيفُهُمْ ؟ الْوَيْلُ ثُمَّ الْوَيْلُ لِمَنْ جَعَلَ اللَّهَ أَدَاءَ تَأْدِيبَ خَلْقِهِ ! يَسْوَقُ الشَّرَّ عَلَى يَدِيهِ، وَلَذِكَ أَحَدُهُمْ قَدْ كَتَبَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قَالَ : يَا مَنْ جَئْتَ الْحَيَاةَ فَأَعْطَيْتَهُ وَلَمْ تَأْخُذْ، أَمَا الْكُفَّارُ أَخْذُوا كُلَّ شَيْءٍ، وَلَمْ يُعْطُوهُمْ شَيْئًا، وَالْأَبْيَاءُ أَعْطَوْهُمْ كُلَّ شَيْءٍ وَلَمْ يَأْخُذُوهُمْ شَيْئًا، وَالْمُؤْمِنُونَ يَأْخُذُونَ وَيُعْطُونَ.

وَيَا مَنْ قَدَّسْتَ الْوُجُودَ كُلَّهُ، وَرَعَيْتَ قَضِيَّةَ الإِنْسَانِ، وَيَا مَنْ زَكَّيْتَ سِيَادَةَ الْعُقْلِ، وَنَهَيْتَ غَرِيزَةَ الْقَطْبِيَّعِ، وَيَا مَنْ هَيَّاكَ تَفُوقُكَ لِتَكُونَ وَاحِدًا فَوْقَ الْجَمِيعِ فَعَشْتَ وَاحِدًا بَيْنَ الْجَمِيعِ، يَا مَنْ كَانَتِ الرَّحْمَةُ مَهْجَتَكَ، وَالْعَدْلُ شَرِيكَكَ، وَالْحُبُّ فَطْرَتَكَ، وَالسُّمُونُ حِرْفَتَكَ وَمُشْكَلَاتُ النَّاسِ عَبَادَتَكَ، سَيِّدَنَا مَاذَا فَعَلَ ؟ سَقَى لِفَتَاتِينَ مُؤْمِنَتَيْنَ تَرْفَقَ بِهِمَا، فَأَنْتَ كَمُؤْمِنٌ إِلَيْنَا لَكَ بَنَاتُ أَخْ وَبَنَاتُ أُخْتٍ، أَلَيْسَ لَكَ جَارٌ مُتَوَفِّيٌ أَوْ لَادُهُ أَيْتَامٌ أَلَيْسَ لَكَ أَنْ تَرْعِي هُؤُلَاءِ، وَتُقْدِمَ لَهُمْ مَعْوِنَةً، وَهَدِيَّةً، وَأَنْ تُعْلَجَ مَرِيضًا، وَأَنْ تَحْضُرْ تَعْزِيَّةً، أَلَيْسَ بِإِمْكَانِكَ أَنْ تَقْعُلَ الْخَيْرَ ؟ أَلَيْسَ لَكَ أَنْ تَقْوِمَ فِي مَرْكَبِكَ عَامَّةً لِأَمْرَأَةٍ مُحَاجِبَةً ؟ أَلَيْسَ بِإِمْكَانِكَ أَنْ تُعْطِي مَقْعِدَكَ لِرَجُلٍ كَبِيرٍ بِالسِّنِّ ؟ أَلَيْسَ بِإِمْكَانِكَ أَنْ تَبْتَسِمَ لِمَنْ هُوَ دُونَكَ ؟ أَحِيَا نَجْدَتَهُ مَنْ يَبْخُلُ بِابْتِسَامَةٍ لِأَخْ صَانِعٍ عَنْهُ، وَالْابْتِسَامَةُ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ، أَلَا تَسْتَطِعُ أَنْ تَزورَ أَقْرَبَاءَكَ يَوْمَ الْجَمِيعَ ؟ صَلَةُ الرَّحْمِ ! تَصْحَّمُهُمْ وَتُبَلَّغُهُمْ، وَتَأْتِيَهُمْ عَلَى الْجَامِعِ، وَتَأْتِيَهُمْ بِأَوْلَادِ أَخِوكَ عَلَى الْجَامِعِ، مَاذَا فَعَلَ سَيِّدُنَا مُوسَى ؟ سَقَى لِفَتَاتِينَ ابْنَتِي شَعِيبَ، قَالَ تَعَالَى :

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقَيْرٌ﴾ (٤)

[سورة القصص]

أبوابُ الْخَيْرِ مُفَتَّحةٌ عَلَى مَصَارِعِهَا.

قَالَ تَعَالَى :

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدِينَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ أَمْرَاتَيْنِ تَذَوَّدَانِ﴾

[سورة القصص]

استُنْبَطَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ الْمَرْأَةَ الْمُؤْمِنَةَ لَا تُزَاهِمُ الرِّجَالَ، وَمِنْ صَفَاتِ الْمَرْأَةِ الْمُؤْمِنَةِ أَنَّهَا تَبْتَعُدُ عَنْ مُزَاحَمَةِ الرِّجَالِ، قَالَ تَعَالَى :

﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ أَمْرَاتَيْنِ تَذَوَّدَانِ قَالَ مَا حَطَبُكُمَا﴾

[سورة القصص]

كَلْمَةُ وَاحِدَةٍ، وَكَلْمَةً زَادَ إِيمَانَكَ خَاطَبَتِ الْأَجْنِيَّاتِ بِكَلْمَةٍ وَاحِدَةٍ جَادَّةٍ صَارِمَةٍ مُختَصَّةٌ، مَا حَطَبُكُمَا ! وَلَيْسَ فِي الْلُّغَةِ كَلْمَةٌ أَقْلَى مِنْهَا، لَمْ يَقُلْ : مَاذَا تَفْعَلُنَّ هُنَّا ؟ أَنَا بِخَدْمَتِكُمْ، قَالَ تَعَالَى :

﴿فَلَا تَخْضُعْنِ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (٣٢)

[سورة الأحزاب]

ما خطبكما، يمكن أن تبيع النساء، ولكن بالجد ! هذه سِعْرها كذا ! وأحياناً المرأة تقول: نحن جيرانك، وقلبك قاسٍ علينا، ألا تُراعينا؟! اللَّيْنَ اجْعَلْهُ مَعَ زَوْجِكَ، لِيُسَمِّنَ دِبْرَهُ وَالْخَارِجَ شَحْرُوراً ! هذا الكلام الطيب دَعْةٌ لِزَوْجِكَ، وَلِمَنْ تَحْلُّ لَكَ، وَابْتِسَامَتِكَ لِزَوْجِكَ وَأَذْكُرْ مَرَّةً أَنِّي كُنْتُ بِمَحَلٍ تِجَارِيٍّ، وَصَاحِبُ الْمَحَلِّ أَعْرَفُهُ، دَخَلَتْ اِمْرَأَ فَرَحِبَّ بِهَا تَرْحِيباً غَيْرَ مَعْقُولٍ، فَأَنَا مِنْ شَدَّةِ أَنِّي أَعْرَفُهُ مَؤْمِنًا جَزَمْتُ أَنَّهَا أُخْتِهِ وَأَحَدُ الْعُلَمَاءَ كَانَ بِالصَّدَرِ فَعَبَسَ، فَقَلَّتْ لَهُ هَذِهِ أُخْتِهِ ! ولَمَّا ذَهَبَتْ قَالَ لَنَا: هَذِهِ أُخْتِي .

الآن اسْمَعُوا الْجَوابَ، قَالَ تَعَالَى:

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (٢٣)

[سورة القصص]

وَاسْتَنْبَطَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ الْمَرْأَةَ لَا تَخْرُجُ إِلَّا لِضَرَورَةٍ قَالَ تَعَالَى:

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْ جَاهِلِيَّةَ الْأُولَى وَأَقْنِنَ الصَّنَاءَ وَآتِينَ الزَّكَاهَ وَأَطْعِنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (٣٢)

[سورة الأحزاب]

إِذَا خَرَجْتِنَّ لِضَرَورَةٍ فَتَسْتَرِنَّ، وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ الْبَيْانَ يُطْرُدُ الشَّيْطَانَ يَقُولُ: هَذِهِ أُخْتِي كَيْ لَا يُسَاءَ الظَّنُّ فِيهِ وَرَحْمَ اللَّهِ عَبْدًا جَبَّ الْمُغَيْبَةَ عَنْ نَفْسِهِ، لَا تَجْعَلْ نَفْسَكَ فِي مَوَاضِعِ الشُّبُهَةِ وَالْتُّهْمَهَ، دَائِمًا لَا تَضَعْ نَفْسَكَ مَوْضِعَ التُّهْمَهَ، ثُمَّ تَلُومُ النَّاسَ إِذَا اتَّهَمُوكَ، فَإِذَا كُنْتَ مُسَافِرًا وَكَلَّتْ أَخْ زَوْجِكَ أَنْ يَتَرَدَّدَ عَلَى أَخْتِهِ فَلَا بَدَّ أَنْ تُبَيِّنَ لِلْجَيْرَانَ أَنَّكَ مُسَافِرٌ وَسُوفَ يَتَرَدَّدُ أَخُ زَوْجِكَ، حَتَّى لَا يُشَكَّ أَحَدٌ فِي عَرْضِكَ الْبَيْانِ يُطْرُدُ الشَّيْطَانَ، وَلَا تَضَعْ نَفْسَكَ مَوْضِعَ التُّهْمَهَ ثُمَّ تَلُومُ النَّاسَ إِذَا اتَّهَمُوكَ، قَالَ

تَعَالَى:

﴿مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّ إِلَى

﴿الظَّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (٤)

[سورة القصص]

وَكُلَّ وَاحِدَ مِنَّا أَيْهَا الْإِخْوَةُ، يُسْتَطِعُ أَنْ يَفْعُلَ مَائَةً عَمَلٌ صَالِحٌ بِالْيَوْمِ وَهَنْتَ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَكُنْسُ دَارُهُ، وَيَحْلِبُ شَاتَهُ وَيَخْسِفُ نَعْلَهُ، وَكَانَ فِي مَؤْوِنَةِ أَهْلِهِ، فَلَوْ أَعْنَتْ زَوْجِكَ هُوَ لَكَ صَدَقَةٌ وَلَوْ أَفْرَغْتَ دُلُوكَ فِي دُلُوكِ الْمُسْتَسْقِي هُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، طَالِبٌ عِلْمٌ مِنْ إِفْرِيقِيَا يَجِبُ أَنْ يُقَابِلَ أَسْتَادًا لَهُ مِنْ بَيْرُوتِ وَرَكِبَ سِيَارَةَ تَاكِسيٍّ، فَهَذَا التَّاكِسيُّ أَوْصَلَ هَذَا الطَّالِبَ إِلَى بَيْرُوتِ وَأَرْجَعَهُ وَاشْتَرَى لَهُ هَدَايَا وَقَالَ لَهُ لَا أَرِيدُ مِنْكَ شَيْئًا ! وَقَالَ لَهُ: أَدْعُ لِي، وَكَذَا إِذَا كُنْتَ طَبِيبًا لَكَ أَنْ تُعِينَ مِنْ لَيْسَ مَعَهُ، فَأَبْوَابُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ مُفْتَحَةٌ عَلَى مَصَارِعِهَا، قَالَ تَعَالَى:

﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (٤)

[سورة القصص]

وَلَا تَنْسَوَا فَوْلَ الْإِمَامِ عَلَيْهِ كَرَمُ اللَّهِ وَجْهُهُ: الْغَنَى وَالْفَقْرُ بَعْدَ الْعَرْضِ عَلَى اللَّهِ ! وَالْإِنْسَانُ إِذَا
وَضَعَ الْلُّقْمَةَ فِي فِي زَوْجِهِ يَرَاهَا مِثْلَ أَحَدٍ فَأَنْتَ فِي أَكْلِكَ يَمْكُنُ أَنْ تَعْمَلَ الْعَمَلَ الصَّالِحَ، رَأَيْتَ
قَلِيلًا مِنَ الْلَّحْمِ أَعْطَهُ لِزَوْجِكَ، وَلِابْنِكَ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ